الباب الأول
الحروب في الجاهلية والإسلام
الفصل الأول
الحروب قبل الإسلام

كانت أسباب الحروب قبل الإسلام كثيرة متعددة ، وترجع في الحقيقة إلى حمية الجاهلية [1] ، التي كانت تطغى على عقول الناس في هذا العصر (عصر ماقبل الإسلام) .

والناظر في ثنايا التاريخ يجد حروبا قامت بين العرب وبين الفارسيين والرومانيين ، وكان سببها الأول هو التوسع ، وبسط النفوذ والسلطان ، وكثيرا ماكان النهب والسلب والسبي مقصداً من المقاصد التي كانت تبعث على إشعال نار الحرب بين الناس .

وكان العرب كثيرا مايتنازعون ويتقاتلون على الماشية أو المراعي أو المياه .

وهناك سبب آخر كان من أجله يتنافس الناس في فن الحرب ، وهو إظهار الفروسية للفرد أو القبيلة ، وكان من عادة الشعراء أن تلهج ألسنتهم بمديح الأبطال والافتخار بهم ، وتكريمهم بالشعر الجميل الذي يظهر شجاعتهم وحسن بلائهم ، وحبهم لقبيلتهم ، وولاءهم التام لبني جلدتهم .

(ويؤخذ مما وصل إلينا من الأخبار أن أيام العرب هذه كانت تتشابه بما وقع فيها من حوادث . ففي أول الأمر يحتدم النزاع بين بضعة رجال ، على أثر خلاف

---

(١) الحمية : الأنفة والكبرياء ويعبر بها عن الغضب الشديد الذي يجعل الجسم كالمحموم من شدة الغضب .

على الحـدود ، أو إهانـة لحقـت أحـد الفريقـين ، فمـا تلبـث خصومـة الأفـراد حتـى تستحيل إلى نزاع عام بين الجماعتين – وتتلظى نار الحرب مراراً بـين المتنـاوئين [1] إلى أن يخمدها توسط قبيلة محايدة ، فيوضع السلم في نصابه .

ولتسوية الخلاف يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائـد علـى قتلاهـم مـن الفريق الآخر ، أما ذكرى النزاع فلا تموت بانتهاء المعامع ، بل تبقى بسالة الأبطـال في مخيلة القوم على مر الأيام والأجيال [2] .

وهذه أمثلة من الوقائع الشهيرة في تاريخ العرب .

حـرب البسـوس :

وقعت هذه الحرب في آخر القرن الخامس الميلادي بين قبيلتـين عريقتـين همـا بكر وتغلب اللتان تربطهما صلة القرابة .

وسببها : أن كليب بن ربيعة – الذي يقـال فيـه أعـز مـن كليـب وائـل ، لـما اجتمعت إليه معد كلها ومَلكوه عليهم وجعلوا لـه تحيـة الملـك وتاجـه وطاعتـه – كـان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وكان يقـول وحـش أرض كـذا في جـواري فـلا يصاد ، وكذلك كان أبوه ربيعة قبله . وكان تحته جليلة بنت مرة بن ذهل بـن شـيبان وهي أخت جساس بن مرة الذي يسمى : ألحامي الجار .

وقد حمى أرضاً في أول الربيع لايقربها إلا محارب .

وفي ذلك الوقت نزل بالبسوس بنت منقذ بن عمرو – خالة جساس رجـل يقـال له سعد الجرمي وكان له ناقة اسمهـا (سـراب) ترعـى مـع نـوق جسـاس وهـي الـتي

---

(١) المناوءة : المعاداة .

(٢) تاريخ العرب مطول حـ ١ ص ١٢٠ .

ضربت بها العرب المثل فقالوا : أشأم من (سراب) [1] ، (وأشأم من البسوس) [2] .

وفي يوم من الأيام خرج كليب يتعهد الإبل ومراعيها وكانت إبله مختلطة بإبل جساس ، فنظر إلى (سراب) فأنكرها ، فقال له جساس وهو معه : هذه ناقة جارنا الجرمي .

فقال كليب : لاتعد هذه الناقة إلى هذا الحمي .

فقال جساس : لاترعى إبلي إلا وهذه الناقة معها .

فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها .

فقا جساس : لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك ثم تفرقا .

ونفذ كليب وعيده ورمى ناقة الجرمي في ضرعها حينما رآها مرة أخرى في مرعى إبله ، فولت ولها رغاء حتى بركت بفناء صاحبها ، فصرخ بالذل وسمعت البسوس صراخهُ فذهبت إليه ورأت ما بناقته ووضعت يدها على رأسها وصاحت . فهدأ من روعها جساس وصمم على أن يقتل كليبا وقتله فعلا ، ودارت رحى الحرب بين القبيلتين واستمرت أربعين سنة ، حتى أنهكت قواهم ، وقضت على الكثير من شبانهم وذوي البأس منهم ، ولولا وساطة المنذر الثالث ملك الحيرة بين القبيلتين وعقده الصلح بينهما ما وضعت الحرب أوزارها إلا بعد فناء أحد المتنازعين .

---

(١) مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٩٠ .

(٢) مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٥٤ ومابعدها .

يوم داحس والغبراء :

وهو من أيام العرب العظيمة له في أشعارهم مكان بارز ، وقد حدث هذا النزاع الطويل بين قبيلة عبس وأختها ذبيان .

والسبب الذي أشعل الحرب بين القبيلتين : هو أن قيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر الفزاري تراهنا على (داحس) وهو لقيس ، و (الغبراء) وهي لحذيفة بن بدْر بأن يجرياهما وجعلا الرهان مائة ناقة ، ويكون منتهى الغاية مائة غلوة [1] : والمضمار أربعين يوما ، ثم أرسلاهما إلى رأس الميدان ، وكان في موضع الغاية شعاب كثيرة فأكمن حمل بن بدر أخو حذيفة في تلك الشعاب فتيانا من فزارة على طريق الفرسين ، وقال لهم : إن جاء داس سابقاً فردوه عن الغاية ، ثم أرسلوهما فخرجت الأنثى على الفحل ، ثم برز الفحل عن الغبراء وسبقها فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية وثبوا في وجهه فردوه حتى برزت عليه الغبراء .

وطالب قيس حذيفة بالرهن فأبي وادعى السبق للغبراء فثار غضب عبس ، واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في الشطر الثاني من القرن السادس بعد سلم البسوس بزمن يسير ، وظلت تظهر في فترات إلى أيام الإسلام فتخطت العشرات من سنيه الأولى ثم عقد السلم بين القبيلتين بتدخل الوسطاء [2] .

وفي هذه الحرب ظهرت شجاعة عنتر بن شداد .

---

(١) الغلوة : رمية سهم أبعد ماتقدر عليه ، والمضمار : غاية الفرس في السباق .

(٢) تاريخ العرب مطول جـ١ ص ١٢١ .

يـوم الفجـار:

اشتهر هـذا اليـوم بهـذا الاسـم لوقـوع الحـرب في الأشـهر الحـرم بـين قريـش وأحلافهم من بني كنانة في جانب ، وهوزان في الجانب الآخـر ، وقـد حضـر النـبي – عليه الصلاة والسلام – هذه الحرب وله من العمر عشرون سنة .

وسببها : أن البراض بن قيس كان مطرودا من كنانة وكان من الحلفاء المقيمـين بخارج مكة ، وكان حليفا لحرب بن أمية ، وكان فـاجراً مدمنـا للخمـر ، فـأوعز إليـه حرب بن أمية بأن يغادر ضاحية مكة فالتجأ إلى ملك الحيرة اللخمي النعمان .

وكان النعمان يرسل في كل سنة قافلة محملة طيبا إلى سوق عكاظ لمبادلته بالأدم والحبال وبرود اليمن ، وكان لابد من إجارة القبائل لتلك القافلة في أثناء مرورها بينها ، فعرض البراض بأن يسير بالقافلة إلى الحجاز وأن تجيرها كنانة ، وعرض عروة الرحـال من هوزان أن يسير بها وحده إلى الحجاز ماراً بنجد بدلا مـن كلـب مطـرود مـن قبيلتـه ففضل النعمان عروة على البراض [1] .

حقد البراض على عـروة وخـرج في أثـره يطلـب الفرصـة الـتي تسـنح لقتلـه ووجده نائما ذات يوم تحت شجرة فقتله واستولى على القافلة .

ودامت هذه الحرب بين هوزان وقريش وحلفائهـا مـن كنانـة أربـع سـنوات وانتهت بالصلح بين الفريقين ، ودفع الفريق القليل القتلى دية الفرق بينه وبـين الفريـق الآخر ، وصار يضرب المثل بأسم البراض مثلا للشر والفجـور فصـار يقـال : (شـر مـن البراض وأفجر من البراض) .

ونظرة إلى هذه الحروب وأسبابها ترينا أن الناس – بحـق – في حاجـة إلى قـوة

---

(١) كتاب حياة محمد لأميل درمنغم ص ٥٧ ، ٥٨ .

فـوق قوة البشر تخرجهم مـن الفوضـى ، وتقودهـم إلى النظـام ، وتخـرج مـن صدورهـم الضغائن والأحقاد حتى يعيشوا في سلام دائم . وتعايش سلمي كريم يعود عليهم بالخـير والسعادة .

وما أكثر مـاينطبق عليهـم قـول فوسـتل دي كولانـج : لاينبغـي أن نجهـل أن الشعوب الفطرية تحاول أمـرا معضـلا إذا أرادت إنشـاء جماعـات منظمـة ، وليس مـن الهين إنشاء صلة اجتماعية بين مخلوقات شديدة التفـرق ، كثـيرة التقلـب ، مغاليـة في الحرية ، ولابد لجمع كلمتها وتأسيس قواعد عامـة فيهـا ، وتعويدهـا السـمع والطاعـة لأميرها ، وإذلال هواها لعقلها ، وعقل فردها لعقل جمهورهـا ، مـن شـيء أقـوى مـن القوة ، وأجل من المنفعة . وأوثق من المذاهب الفلسفية ، وأثبـت مـن العقـود الملزمـة ، شيء يصل إلى كل قلب ويأخذ بكل شغاف .

هذا هو الإيمان ولاشيء يستولي على النفوس مثله ... [1] .

حقا إن الإيمان هو السبيل الوحيد لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم ، صـراط الله الذي أراده الله لعبـاده ؛ ليعمـروا أرضـه ويقيمـوا دينـه فيهـا ؛ وينشـروا السـعادة والرخاء بين عباده عليها ...

وهذا محمد – صلى الله عليـه وسـلم – جـاء بدينـه الجديـد والدنيـا كلهـا في حاجة إليه ، والإصلاح الشامل للحياة ينتظره ، وكان بحق رحمة للعالمين .

---

(١) الشرع الدولي في الإسلام ص ١١ .

obeikandl.com